الباب الثالث:
حكايا السَّقيف

الفصل الأوَّل: كبرياء قلعة

نستعرض في هذا الباب ما تيسَّر لنا من تاريخ قلعة الشَّقيف، في محاولة لمعرفة الأحداث السياسية والعسكرية التي فرضت نفسها بقوَّة على سكان يحمر وعيشهم خلال الأزمنة الماضية.

1- شذرات تاريخية متناثرة

قلعة الشَّقيف ملكةُ الموقعِ الفريد، ووليدةُ صفحات التاريخ المُتخم بالصِّراع، شامخةٌ تتحدّى الغزاة منذ بدء التاريخ، أبِيَّةٌ شمَّاءُ تتبختر بعد رحيل كلّ احتلال، وفي نوَّار العام ألفين حملتْ رايةَ الحرِّية وابتكرتْ رقصةَ العزّ والإباء، وانكسرت أنياب الغاصبين تحت أقدامها المغروزة في صخور الشَّقيف.

منذ غابر الأيام تحتضن القلعة مع تباشير الصباح خيوط شمس حرمون، فتنساب الحياة في مفاصل عاملة، وتطمئن أمواج الشاطئ الممتدّ ممَّا بعد صيدا، إلى ما بعد ما بعد عكا، وتغزل السَّنابل مع مواويل الحصَّادين في أطراف القرى أجمل لوحة تليق بسحر العيون، فيكبر هذا الجبل ليصبح بحجم العالم الذي حاول كسر عنفوانه في السنة السَّادسة بعد الألفين، فانهزم أمام حماة الشَّقيف وأمام قوّة الحقّ الذي لا يُقهر.

صحيح أن الزمن طبع بصماته فوق جدرانها، وعبثت الأيادي السُّود في هندستها وعمرانها، لكنها لا تزال أميرةً تحافظ على روعة مُحيَّاها، تشدّك لاكتشاف البهاء الفوَّاح من عبق التاريخ، فتراها أنّى توجَّهتَ في أيٍّ من حواضر هذا الجنوب، قبلةً للجمال والتراث والاعتزاز، ولا تكاد تغيب عن مرامي القلب والعين.

القلعةُ مرصدٌ حيويٌّ لمنطقةٍ هامّةٍ من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، تتحكّم بمعابر ومفاصل أساسية في هذه الزاوية من بلاد الشام، تمتدّ من سواحل صيدا وصور وعكا غرباً إلى جبل الشيخ ومرتفعات الجولان شرقاً، ومن بحيرة طبرية وصفد وسهل الحولة جنوباً إلى البقاع مروراً بسهل الخيام ومرجعيون شمالاً، مما يجعلها عقدة لا يمكن التغاضي عنها في كلٍّ من سورية وفلسطين ولبنان..

تتربّع القلعة فوق شقيف عظيم على كتف الليطاني بين بلدتي يحمر وأرنون، حُفرت أُسسها عميقاً في الصَّخر، ترتفع نحو 700 م عن سطح البحر، ولها مدخلٌ واحدٌ من جهة الجنوب، شكلها مثلث الزوايا، تقيس 160م طولاً و100م عرضاً، لها من الغرب والشمال أحواض محفورة في الصخر ومسقوفة بعقود حجرية، وتكثر بداخلها أحواض تخزين المياه.

القلعة مبنيّة بحجارة مقطوعة من داخل الانحدار الصخري الذي شُيِّدت فوقه، ممّا يجعلها متماهيةً مع جوارها، فجدرانها بلون الصخر، ولولا النوافذ ومرامي النبال لما أمكن لأحدٍ أن يلحظها من الجهة الشرقية.

تتألف القلعة من أربع طبقات، في الأسفل اسطبلات، وفي الأعلى كنيسة لاتينية ذات سقف من قناطر متقاطعة، وفي الجهة الشرقية يوجد جامع وآثار أبنية متصلة بأعلى القلعة.

يجاورها نهر الليطاني من ثلاث جهات عبر وادٍ عميقٍ شديد الانحدار (قرابة 500م عمقاً)، ممَّا يوفِّر لها مناعة طبيعية، ويجعلها حصناً قويًّا لا يمكن مهاجمته إلا من جهة واحدة (الجهة الغربية)، ولها باب صغير من الجهة الشرقية يسمَّى باب السِّرّ، وهناك روايات ضعيفة تدَّعي وجود نفق يربطها بالنهر [1].

– قالوا عنها: وصف العديد من الرحَّالة العرب والأجانب القلعة في كتاباتهم، ومنهم ماشنجي (سنة 1614م) الذي قال: (قلعة الشَّقيف تنتصب على صخر شاهق، ومبنية بالحجر الأصمّ على شكل زاوية، ارتفاعها 400 ذراع ودائرتها 54 ذراع، لها أبراج مربّعة تسع 500 جندي، وفيها من الزَّاد ما يفيض على ثلاث سنين، ناهيك عن صهاريج المياه وآبار الزيت، وهي من الخارج في غاية المناعة، وقد حفرت لها خنادق عميقة أمام المواقع السّهلة المنال....).

أما سانتي فقال: قلعة الشَّقيف تبعد 18 ميلاً من السَّاحل، منتصبة على جبل صخري مزحلق من كلِّ جهاته إلا من جهة واحدة ضيّقة يسهل صدّ العدو منها، لا يتطلّب تحصينها سوى نفقة زهيدة، حاميتها 300 جندي.

أما المؤرخ عيسى إسكندر المعلوف (1869-1956) فقد وصفها قائلاً: هذه القلعة منحوتة في صخر شاهق، يشرف على نهر الليطاني وسهل مرجعيون وقلعة هونين وغيرها، وهي قلعة قديمة أبنيتها من أواخر العهد الروماني، وبعضها من عهد العرب، علوها عن البحر 2345 قدماً، وعن نهر الليطاني 1500 قدمٍ، لها من الغرب والجنوب هُوَّة محفورة في الصخر عمقها بين 15 و 36 م، مدخلها من الجنوب الشرقي، وطولها 120م، وعمقها 30م، وفي طرفها الشمالي بناء ناتئ يتجه صوب الشرق، وصحنها الشرقي بعمق 15 م، وعلى حائطها الجنوبي برجان يمثِّل كلٌّ منهما نصف دائرة [2].

1- قضاء النبطية في قرن 1900- 2000، علي حسين مزرعاني - وذاكرة الجنوب، عين وأثر، كامل جابر، الجنوب للإعمار - وعين تحاكي الجمال، كامل جابر، وزارة السياحة، ص 28 - وجبل عامل في التاريخ، الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه، دار الأضواء، ص 20 للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 167.

2- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 54.

2- رحلوا وبقيتْ

وضع الرومان أسس القلعة الأولى، فبنوا معبداً لهم، وبجواره حصناً صغيراً أخذ يكبر مع الوقت نظراً للموقع الحيويّ المميَّز، ثمَّ تعاقبت عليها أمم وشعوب مختلفة، فانتقلت من الخلفاء الأمويين إلى العباسيين، فخلفاء مصر الفاطميين، ثمَّ الاحتلال الصَّليبي، ومنهم إلى الأيوبيين ثم إلى مواليهم وموالي الترك، ثم إلى الصليبيين فالأتراك، ثم إلى أمراء البلاد الوطنيين، وأخيراً دنَّسها الصهاينة لعقدين من الزمن.

كانت القلعة قبل العهد الصَّليبي في قبضة الضحَّاك بن جندل البقاعي، أمير وادي التَّيم من قبل الفاطميين، غير أن شمس الملوك إسماعيل بن نور الدين زنكي صاحب دمشق، ضمَّ القلعة إلى مملكته في العام 1033م.

تعدّدت أسماء هذه القلعة التاريخية الرائعة الجمال والموقع الآسر، وعُرفت عند مؤرخي العرب بعدَّة أسماء (حصن أرنون، شقيف أرنون، الشَّقيف الكبير، قلعة الشَّقيف)، وسمَّاها الفرنجة بوفور (Château de Beaufort) أي الحصن الجميل، ولها عدّة أسماء أجنبية منها: عين النسر، عين الغزال [1].

3- قصَّة الشَّقيف مع الصَّليبيين

احتلّها الصليبيون وجعلها (قطورا) الكونت أورا مركز الحاكم العام للمنطقة الممتدّة من صيدا إلى عكّا، وأطلق عليها اسم مملكة الشَّقيف.

أقام الصليبيون سلسلة من القلاع والحصون على المضائق الاستراتيجية والمرتفعات المشرفة على السَّاحل، ولا شكَّ أنَّ أروعها قلعة الشَّقيف، التي تبدو كأنها عشّ نسر فوق شاهق يشرف بأبَّهة على نهر الليطاني.

رمَّم (فولك) ملك القدس (صهر بولدوين الثاني وخليفته) القلعة واستحدث أقساماً جديدة سنة 1135م، ووصل ارتفاع جدارها الغربي إلى 26 متراً عن الخندق المحيط بها من الجهة الغربية والجنوبية الغربية، وهذا الخندق محفور في الصخر حولها بعمق يصل حتى 28 متراً، وفي قلب الخندق حفرت آبار لحفظ الماء.

كانت هذه القلعة تعدُّ حصناً يصعب السيطرة عليه، وعلى الرغم من مرور القرون فإنَّها كأُختَيها في الشمال (حصن الأكراد، والمَرقَب)، لا تزال قائمة على هضبتها تطلّ على ما حولها بإباءٍ وشمم [2].

1- للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 188.

2- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 43 - وللبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 167 و ص 184.

4- المحرِّر صلاح الدين والخائن إسماعيل

هاجم السّلطان صلاح الدين الأيوبي القلعة بجيش كثيف مجهَّز بآلات الحصار وأدوات التدمير، لأن أرناط (رينولد) كان قد جدَّد تحصينها وعزَّز دفاعاتها، وبعد اجتماع القائدين أمهل صلاح الدين أرناط ثلاثة أشهر لتسليم القلعة، فأزال الأخير بعض التحصينات التي بناها ثم سلَّمها إلى صلاح الدين.

بعد وفاة صلاح الدّين، أُعيدت للفرنسيين مع قلعة صفد عام 1240م، بعد خيانة إسماعيل ملك دمشق، وتسليمها لهم على أن يكونوا ظهيراً له على ابن أخيه الصالح أيوب صاحب مصر، فأنكر عليه ابن عبد السّلام خطيب دمشق وأبو عمر الحاجب المالكي، فحبسهما في القلعة بعد هزيمة حاميتها التي رفضت تسليمها له وللصليبيين، فعاقب أفرادها، ثم اتّجه مع حلفائه الصليبيين إلى غزو مصر، فلما التقى الجيشان بالقرب من غزة، انضمّت القوات الشامية إلى القوات المصرية ومالوا جميعاً على الفرنجة، فهزموهم وأسروا منهم أعداداً كبيرة، وانهزم معهم الملك الخائن.

اشترت رهبنة الفرسان الهيكليين قلعة الشَّقيف من جوليان حاكم صيدا سنة 1260م، وبنوا القصر الجديد فيها، (لا تزال أنقاضه على بعد مئات الأمتار من الجهة الجنوبية للقلعة)، وبقيت بحوزتهم إلى حين تحريرها من قبل الظاهر بيبرس سنة 1268م بعد حصار شديد [1].

5- الظاهر بيبرس ونسائم الحرية

أخذ سلطان المماليك الظاهر بيبرس يافا من أيدي الصليبيين بالسَّيف، ثمّ توجّه في 6 نيسان 1268م نحو قلعة الشَّقيف، حاملاً معه المجانيق والأسلحة اللازمة لحصارها، وعند وقوع رجال يحملون البريد المرسل إليها من قلعة عكا ويطلبون من حاميتها إصلاح الثغرات التي يُخشى منها، عمد إلى استخدام الحيلة وسيلة للاستيلاء عليها، فقام بتزوير الرسائل اللاتينية وبعث بكتاب أمانٍ إلى بعض المقدَّمين فيها، فأوقع من خلالها بين قادة الفرنجة، مما أدَّى إلى نشوب فتنة في صفوفهم.

شدَّد الحصار عليهم فاضطرّ الفرنجة بعد أسبوع إلى تسليم برج الظاهرية، ولم يمضِ يومان حتى استسلموا مقابل منحهم الأمان، فتسلَّم السلطان القلعة وزوّدها بالعساكر والأسلحة، وأمر بترميمها وعيَّن فيها قاضياً وخطيباً، وأعلنها مركز الولاية الأكبر في جبل عامل (تضم 34 قرية).

كانت الشَّقيف قلعتين متجاورتين فجمع الظاهر بيبرس بينهما، وبنى جامعاً فيها وحمَّاماً، ولا

1- للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 192 و 198. www.startimes.com/f.aspx?t=14857316

يزال الجامع قائماً في أعالي القلعة حتى اليوم، أمّا الحمّام فيظن بعضهم أنه كان في حضيض الجبل القائمة عليه.

والملك الظاهر بيبرس هو أوّل من جعل في قلعة الشَّقيف دار نيابة كدمشق، مما يظهر جليًّا في عقد الهدنة بينه وبين ملكة بيروت (مارغريتا) أرملة يوحنا دو منتغرات، من قولهم: والمملكة الشَّقيفية وما يختصّ بها من قلاعها وبلادها ورعاياها.

وكذلك يظهر من الهدنة التي عقدت بين السلطان المنصور (قلاوون) الصالحي صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية وولده الصالح علي وولي عهده، وبين حكام الفرنجة بعكا سنة 682 هـ (1283م) من قولهم: والشَّقيف المحروس وما معه من البلاد والأعمال وما هو منسوب إليه.

وسار العثمانيون لاحقاً على هذه الخطَّة وسمّوا المنطقة بناحية الشَّقيف، ولم يُلغَ هذا الاسم ويستبدل بناحية النبطية إلّا بعد زوال الدولة العثمانية في سنة 1918م[1].

6- القلعة وآل معن

لم يتسنَّ للمعنيين حكم جبل عامل إلا في عهد الأمير فخر الدين الثاني، يوم كانت الدول الغربية مع الكرسي الرسولي تأخذ بعضد الأمير وتمدّه بالسِّلاح والسُّفن الحربية والمال والخبراء العسكريين، تحقيقاً للأهداف التي وضعها حكام أوروبا لإعادة غزو بيت المقدس، بالإضافة إلى أنَّ فخر الدين كان يقدّم الهدايا الثمينة ويغدق الأموال الطائلة على الوزراء والولاة العثمانيين ليمكّنوه من حكم المقاطعات.

استولى الأمير فخر الدين الثاني سنة 1610م على قلعة الشَّقيف بالخدعة والحيلة، وحصّنها تحصيناً قوياً، وجعلها مخبأً لخزنته.

علم فخر الدين المعني بتهيؤ أحمد باشا الحافظ والي دمشق العثماني للحملة عليه، ففرَّ إلى إيطاليا ووضع في كلٍّ من قلعتَي الشَّقيف وبانياس المؤن والبارود والعتاد ما يكفي لخمس سنين، ووزّع حريمه في القلعتين، وتلقّى دعماً فرنسياً عبارة عن 18 خبيراً باستخدام المدافع.

وفي أواخر شعبان 1022 للهجرة (1613م)، قطع جيش أحمد باشا جسر الخردلي، وبدأ بحصار القلعة وبرج الظاهرية المقابل لها، وكان فخر الدين قد طلب منهم هدم البرج والانسحاب منه لأنه غير محصَّن كفاية، لكن المسؤول عن البرج قرَّر البقاء فيه مع 50 مقاتلاً.

1- للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 199 - وحركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 64.

حصل خطأ مع أحد جنود الداخل، ففي أثناء تعبئته البارود كان يحمل فتيلاً مشتعلاً، فاحترق برميل البارود وانتقلت النار إلى كافة براميل الذخيرة بلمح البصر، فانفجر البرج بمن فيه، ووقع أكثر من 70 رجلاً من المدافعين والمهاجمين في المزحلق.

وفي شهر رمضان شرع المهاجمون بعمل المتاريس حول القلعة وقطعوا أشجار الزيتون، ودام حصارها ستين يوماً لم يتوقّف خلالها القصف المدفعي وإطلاق النار، وثبت مَنْ في الداخل وصمدوا أمام أكثر من خمسة آلاف جندي يحاصرون القلعة (في بعض المصادر خمسين ألف جندي)، وجاءت العساكر بالمدفع الكبير الذي كان في قلعة صيدا، وضربوا به مرتين فانفجر وتعطّل وقتل بعض الجنود.

ولما اشتدَّ الحال على الأمير يونس المعني وعلى وجوه أهل الشوف، أرسلوا الستّ نسب والدة الأمير يونس كي تستجدي الحافظ أحمد باشا الذي يحاصِر القلعة، فتوجّهت إليه حاملةً المال والهدايا والخيول، فعفا عن ولدها بشروط وأبقاها رهينة.

وفي سنة 1616م أمر الوزير العثماني بهدم قلعتَي بانياس والشَّقيف، فحضر معلِّمو بناء من الشَّام وعملوا هدماً بالقلعة لمدة 40 يوماً متواصلاً [1].

7- أمراء المقاطعات الوطنيين

- **مقاطعات جبل عامل**: أطلق على جبل عامل اسم بلاد بشارة منذ سادها بنو بشارة العامليون في القرنين الثامن والتاسع للهجرة، ويقسم نهر الليطاني البلاد إلى قسمين:

بلاد بشارة الجنوبية (المنطقة الواقعة جنوبي النهر): لا تزال تحمل هذا الاسم، وكانت زمن الحكومات الإقطاعية تتألّف من أربع مقاطعات، هي: تبنين، هونين، قانا، ومعركة.

بلاد بشارة الشّمالية (المنطقة الواقعة شمالي النهر): كانت تتألّف من خمس مقاطعات، هي: الشَّقيف، الشُّومر، التفَّاح، جزين، والريحان وقاعدتها كفرحونة.

أ - الحكومة الإقطاعية الأولى: بدأت منذ الحاكم الإقطاعي الأول الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين العاملي الذي كان معاصراً للملك الناصر صلاح الدين، واستمرّت هذه المرحلة حتى مقتل القائد العاملي ناصيف النصار سنة 1780م في معركة يارون مع الجزار.

ب - الحكومة الإقطاعية الثانية: (1780 - 1832م) انتهت بسيطرة إبراهيم باشا المصري

1- للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 199 - وحركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 64 - وتاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ص 108.

على البلاد وإسقاط الحكومات الإقطاعية كلّها، وضمّ جبل عامل إلى حكومة الأمير بشير الشهابي.

جـ - الحكومة الإقطاعية الثالثة: بدأت في العام 1841 تاريخ جلاء الجيش المصري عن سورية التي عادت للحظيرة العثمانية، واستمرّت حتى العام 1865.

- **العائلات الإقطاعية التي تنازعت النفوذ في عاملة:** برز الصعبيون (آل صعب) في مقاطعة الشَّقيف، وأصولهم كردية من ذرّية الملك الأفضل نور الدين الأيوبي، جاء جدّهم بهاء الدين في عهد صلاح الدين الأيوبي واستوطنوا قلعة الشَّقيف والنبطية، وأشهر حكامهم الأمير علي أحمد الفارس والأمير حيدر أحمد الفارس.

وبرز آل الزين في بلاد بشارة وساحل صور، والمقدّمون الخزرجيون في مقاطعة جزين، وآل منكر (منقر) في مقاطعتي الشومر والتفاح، وآل علي الصغير في بلاد بشارة الجنوبية الذين تقدّموا على الأسر العاملية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر عندما كان زعيمهم ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل، وآل شكر في بلاد بشارة وساحل معركة، وآل برو في جبل الريحان، وآل داغر في منطقة أنصار، وآل شامي في منطقة بنت جبيل [1].

قلعةُ وقمر.. وليلةُ سمر

1- للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 411 - وحركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 84 - وتاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ص 98 - والشعر العاملي الحديث، د. قيصر مصطفى، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الأولى، ص 29.

8- آل صعب

أقام أحمد منصور والشيخ أحمد فارس في قلعة الشَّقيف عام 1151هـ (1738م)، فعمّراها وأحدثا فيها بوابة، وفي السنة التالية كبس باشا صيدا سعد الدين العظم وقتل الشيخ أحمد فارس.

أ- معركة كفررمان - النبطية (29 تشرين أول 1771م): بعد الانتصارات التي حقَّقها تحالف جبل عامل بقيادة ناصيف النصار والفلسطينيين بقيادة ظاهر العمر (معارك داريا ودمشق والحولة والغازية...) ضد الباشاوات العثمانيين والأمراء الشهابيين، ونتيجة للعلاقة الممتازة التي كانت تربط ظاهر العمر مع حكام مصر، خاف والي دمشق من هذه الروابط فقرَّر الهجوم على جبل عامل وتأديب أهله، وفي 18 ت1 1771م أرسل إلى صيدا مندوباً يحمل معه أمر تكليف الأمير يوسف شهاب بمهاجمة بلاد عاملة، مقابل إعفائه من دفع ميرة بلاده مدة سنتين، فاستعدّ لتنفيذ هذا الأمر بكلِّ حماسة.

قتل أهالي نيحا الشوف اثنين من كفررمان (ربَّما هي الشرارة التي افتعلها الأمير يوسف لتنفيذ الأوامر الصَّادرة من والي دمشق)، فشكا أهلهما الأمر إلى الشيخ علي بن أحمد الفارس عميد آل صعب وحاكم مقاطعة الشَّقيف، الذي كان يدير أمور المقاطعة من القلعة ذاتها، فكتب إلى الأمير يوسف الشهابي حاكم جبل لبنان طالباً إرسال المعتدين بأسمائهم للمحاكمة، فرفض الأمير الطلب، وبعد أيام اقتحمت مجموعة من العناصر قرية نيحا وقتلوا أربعة من أهلها، فاغتاظ الأمير يوسف وزحف بجيش عظيم يفوق العشرين ألف مقاتل، فدخلوا البلاد يدمِّرون القرى على من فيها.

كتب الشيخ علي الفارس إلى الشيخ ناصيف النصار شيخ مشايخ جبل عامل طالباً النجدة، فهبّ ناصيف وأرسل (الصوَّات) لحشد المقاتلين، وكتب إلى حليفه الشيخ ظاهر العمر صاحب فلسطين يطلب العون.

تقدّم الأمير يوسف جيشاً ضخماً سلك طريق جرجوع عربصاليم النبطية، وكانت قوات الشيخ علي الفارس وأخيه حيدر تتألف من فرقة الفرسان، التي كانت تقيم في قلعة الشَّقيف وعددها نحو 500 فارس، وفرقة المشاة وعددها 1000 مقاتل، عسكرت في الجهة الشمالية الشرقية من النبطية.

عسْكرَ المهاجمون في كفررمان واحتلت مقدمة جيشهم الجهة الغربية من النبطية، ونصب الأمير يوسف الشهابي سرادقاً كبيراً على البيدر قرب الجبَّانة، كأنه في نزهة مغترًّا بكثرة عديد جيشه.

بدّل الشيخ علي الفارس خطّته وقرَّر الهجوم بدل الدفاع، وعند انتصاف الليل هاجم بفرقة

الخيَّالة معسكر الأمير فدبّ الذعر به وبجيشه، ووصلت قوات ناصيف النصار المؤلفة من 10.000 مقاتل عابرة طريق شوكين زبدين النبطية، فتبعثر جيش الأمير وتراجع إلى كفررمان، فلحقت به قوات المشاة بقيادة الشيخ دندش بن أحمد الفارس.

وفي اليوم التالي احتدمت المعركة خصوصاً مع قوات الشيخ كليب نكد، إثر مسارعة الأمير إسماعيل الشهابي لنجدة المهاجمين، لكن الجيش فقد السيطرة كليًّا وانهارت معنوياته وكان همّ الجنود النجاة والفرار من أرض المعركة، والقوى العاملية تلحق بهم في روابي سجد وسهل المئذنة وعقبة جرجوع، ومات أكثرهم خوفاً وتعباً، وتعقّب الشيخ ناصيف النصار الأمير يوسف الشهابي فأدركه في عقبة جرجوع، فأسره ثم عفا عنه، وذكر المؤرخون أن الجيش الشهابي خسر أكثر من ثلاثة آلاف قتيل في هذه المعركة.

وصلت نجدة الشيخ ظاهر العمر بقيادة ولديه الشيخ علي والشيخ عثمان بعد أن وضعت الحرب أوزارها (5000 فارس)، وقيل إنَّها تباطأت قصداً في أحراش يحمر الشَّقيف [1].

ب - معركة صيدا: في 10 صفر سنة 1186هـ (1772م) أغار ظاهر العمر على الحولة، ثم عبر الخردلي إلى بلاد الشَّقيف لملاقاة عساكر العامليين (الشيخ ناصيف النصار والشيخ علي الفارس) المتجهة إلى حرب الأمير يوسف الشهابي في صيدا المدعوم من الوالي العثماني في دمشق، ولاقتهم المراكب في البحر، وفي 9 ربيع الأول حدثت واقعة صيداء (في سهل الغازية)، وكانت معركة عظيمة شارك فيها سلاح المدفعية، انتصر فيها العامليون وحليفهم ظاهر العمر، وغنموا غنيمة كبيرة، وقتل أكثر من 500 جندي من التحالف الشهابي العثماني.

جـ - وفاة صاحب القلعة: توفي الشيخ علي الفارس بن أحمد الفارس، نهار الاثنين في 15 رجب 1189هـ (11/ 9 / 1775م) في تبنين، أثناء عودته من مواجهة مع والي دمشق في منطقة صفد.

د - الشاعر إبراهيم الحاريصي: ازدهرت قلعة الشَّقيف واستعادت سابق مجدها زمن الشيخين، الأمير علي والأمير حيدر ابنَي أحمد بن حيدر بن فارس الصعبي، ما بين العام 1738م والعام 1780م، وكانت من أشدّ القلاع تحصيناً وأكثرها تزويقاً وتنميقاً، وصفها شاعر عاملة في ذلك العهد الشيخ إبراهيم الحاريصي، من خلال قصيدة يمدح بها صاحب القلعة الشيخ علي الفارس[2]:

حصنٌ حصينٌ وأبراجٌ تدورُ على ... قطـبِ السّعودِ ولا تنحطّ عن زحل

1- للبحث عن تاريخنا في لبنان، علي الزين، طبعة 1973، ص 311 - وحركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 98 و 110 - وتاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ص 96 و 122 - وجبل عامل في التاريخ، الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه، دار الأضواء، ص 241 - وتاريخ الجنوب اللبناني، محمد سعيد ياسين، دار الغد العربي، ص 74.

2- جبل عامل في التاريخ، الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه، دار الأضواء، ص 198.

وشـــاهقٌ راح يحكيها، فقلت له ... ليس التكحّل في العينين كالكحل

وله في وصفها:

لكَ القلعةُ الشَّمّاءُ أشرق بدرهـــا ... وإن كره الحسَّاد في فرق فرقد

جذبت بها حتى بلغت بها السُّهى ... وقصّـرَ عنها كلُّ قصرٍ مشيّد

وله أيضاً:

ما الشَّقيف الصَّلدُ إلا جنَّةٌ ... ولنـــا قصرٌ بأعـلاه اســـتنار

تنظر المـــرآة فيه، فتـــرى ... فوقك النـــهر تـراءى بانحـدار

ما رأينا قبـل هـذا جـــدولاً ... فوق قصـرٍ شامخٍ في الجـو طار

لا ولا قـصـــر كـهذا إنـــــه ... فـلكٌ يزهـــو ولكـــن لا يـــدار

زيـنة الدنـيا على أرجـــائه ... تزدهـــي في كل نحـــوٍ كالفنـــار

نقشـــها مؤتـلف مختـلف ... في ابيضاضٍ واحمرارٍ واخضرار

شـــامخ يـأوي إليـه أســـدٌ ... ذو افتـراس واقتـناص وابتـدار

9- حملة الجزَّار

بعد معركة يارون واستشهاد ناصيف النصار 1780م، بدأ أحمد باشا الجزّار بحملة تنكيل واسعة في مقاطعات جبل عامل المختلفة، وكانت قلعة الشَّقيف بيد الشيخ حيدر الفارس الذي اعتصم بها رافضاً الاستسلام، فتعرّضت لقصف مدفعي مباشر من جنود الجزّار، ولم تسقط لحصانتها، وصمدت مدّة شهرين، وبعد مفاوضات طويلة تقرّر تسليم القلعة للباشا شخصيًّا، بشرط سلامة الموجودين بداخلها.

في 24 تشرين الثاني سنة 1781م استسلم الشيخ حيدر الفارس ورجاله وتسلّم الجزّار قلعة الشقيف، التي كان يقيم فيها ما يقارب 300 عائلة، وكان لها بابٌ حديديّ عظيم، نقله الجزّار إلى عكّا وجعله باباً لها [1].

1- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 120 - وجبل عامل في التاريخ، الحجة الشيخ محمد تقي الفقيه، دار الأضواء، ص 267 - وتاريخ الجنوب اللبناني، محمد سعيد ياسين، دار الغد العربي، ص 87.

10- إبراهيم باشا والانتفاضة العاملية

في العام 1831م أرسل محمد علي باشا جيشه بقيادة ولده إبراهيم باشا إلى سورية، فسيطر عليها وقسّمها إلى مقاطعات، وألحق جبل عامل بجبل لبنان وأميره آنذاك بشير الشهابي الثاني المعروف بالمالطي، فولّى الأمير الشهابي ولده مجيد إدارة مقاطعات جبل عامل، وكان شابًّا غرًّا، أرهق الناس بجوره، وحقّر العلماء والأعيان، وامتلأت السجون بالرجال.

ونتيجة للضغط والشدَّة والضرائب وفرض السّخرة ثار الناس في البقاع بقيادة الأمير جواد الحرفوش، واندلعت الثورات أيضاً في السَّاحل السوري ووادي التيم وحوران وفلسطين وشمالي لبنان.

قاد الثورة في جبل عامل حسين بك ابن الشيخ شبيب ابن الشيخ علي أحمد الفارس الصعبي، مع أخيه محمد علي بك من سنة 1836م إلى سنة 1839م.

اتّسع نطاق الثورة، فوضع إبراهيم باشا فرقة من عسكره تحت تصرّف الأمير الشهابي، وأوكل إليه إخمادها، فاشتبك الأمير مجيد مع الثوار في عدة معارك ولم يستطع النيل منهم، فلجأ إلى التنكيل بالمدنيين بشكل فظيع ليضغط من خلالهم على الثوار.

لجأ قادة الثورة إلى حوران لتخفيف الاحتقان الموجود، علِم إبراهيم باشا بمكان وجودهم، فأرسل فرقة من عسكره أحاطت بالمنزل الذي كانوا فيه، وكان حسين بك الشبيب مريضاً مدنفاً فأوعز إلى أخيه محمد علي بك أن ينجو بنفسه، فخرج من الدار وبيده القرابينه، (اسم تركي لنوع من السّلاح الناري، واسع الفم، قصير الأنبوب)، يهدّد بالموت كلّ من يدنو منه، فاخترق صفوف الجند وهم لا يعرفونه، يتبعه جماعة من رجاله فيهم أيوب خليل علَّيق ونصر الله علي علَّيق (زهنون) من يحمر الشَّقيف، ونصر الله نعنوع من المروانية.

دخل الجند البيت وقبضوا على حسين بك شبيب، ولمّا سألوا عن محمد علي ادّعى موسى قليط من قرية ياطر بأنه هو محمد علي، وكان يشبهه شكلاً فقبضوا عليه وساروا بهما إلى دمشق، فأمر شريف باشا بشنقهما.

استمر الأمير الشهابي في التنكيل بزعماء جبل عامل، وقبض على الشيخ فضل حفيد الشيخ حيدر الفارس حاكم بلاد الشَّقيف وزعيم الصعبيين وجرّعه من العذاب ألواناً.

ضرب زلزالٌ شديدٌ المنطقة في العام 1837م، فدمَّر الجزء العلوي من قلعة الشَّقيف، ولاحقاً صارت تلك القلعة العظيمة وقاعاتها الجميلة، التي كانت مسكناً للأمراء والأشراف، خراباً ومأوى للرعاة والماشية، ونقل الشيخ حسن الفارس الصعبي جانباً من أحجارها الملوّنة الى قرية البابلية، وزيَّن بها بعض المباني التي أنشأها في تلك البلدة [1].

11- أدهم خنجر.. صفحة مشرقة من النضال العاملي ضد الفرنسيين

برز المناضلان أدهم خنجر وصادق حمزة على رأس المقاومة المسلّحة ضد القوات الفرنسية التي احتلّت جبل عامل بعد الحرب العالمية الأولى، وصادق الحمزة من قرية دبعال قاد الثورة في منطقتي صور وبنت جبيل، أما أدهم بن خنجر ابن المناضل محمد علي الشبيب الصعبي الذي قاد مع أخيه حسين حركة التمرّد في جبل عامل ضد قوات إبراهيم باشا (1836-1839م).

ينتمي أدهم خنجر لأسرة آل صعب حكَّام الشَّقيف في التاريخ العاملي، والتي اقتطعتها الدولة العثمانية أراضٍ في مقاطعتَي الشَّقيف والشومر مكافأة لتمرّدها على إبراهيم باشا.

انخرط العديد من الشباب في صفوف المقاومة بقيادة أدهم خنجر، متّخذين من قلعة الشَّقيف وأحراج يحمر مركزاً لانطلاق عملياتهم، وقاموا بعمليات عسكرية موجعة ضدَّ قوافل الفرنسيين والمتعاملين معهم، ورفع الثوار شعارهم: (فليبع مَن لم تكن لديه بندقية ثوره أو حماره ويشتريها).

وأهم الضربات المؤلمة للفرنسيين كانت معارك المصيلح، والخردلي، وهونين، والطيبة، والحولة، وعلي الطاهر، والحاصباني...، وكانت ضرباته تلاحق جنودهم من منطقة إلى أخرى، مما أقلق الجنرال غورو، فأرسل بتاريخ 18 / 5 / 1920 حملة ضخمة تفوق 4000 جندي بقيادة الكولونيل نيجر، تدعمهم الطائرات الحربية، فقامت بأعمال همجية ضد المواطنين في كافة مناطق جبل عامل، بهدف ضرب المقاومة التي صعَّدت من عملياتها ضد قوات الاحتلال.

طالت همجية الحملة معظم الأراضي العاملية، وأصيب المواطنون بخسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، وعمدت السلطات الفرنسية إلى إجراءات قمعية وضرائبية قاسية، وتراجع الثوار باتّجاه فلسطين وحوران [2].

1- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 228 و 255 - وتاريخ الجنوب اللبناني، محمد سعيد ياسين، دار الغد العربي، ص 96 - وتاريخ جبل عامل، محمد جابر آل صفا، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية، ص 144.

2- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 228 - وتاريخ الجنوب اللبناني، محمد سعيد ياسين، دار الغد العربي، ص 146.

12- أيوب أيوب علَّيق

يروي القاضي رضا محمد التامر قصّة عن أدهم خنجر رآها بأمّ عينه، وقعت أحداثها داخل منزله في قرية الزبيد الفلسطينية، فيقول:

صباح أحد الأيام كنَّا جالسين في المنزل، وإذا بنا نفاجأ بما يقارب الخمسين جنديًّا من الإنكليز يطوّقون الدار، وعلى رأسهم المختار اليهودي (الطي)، الذي نادى على والدي لمقابلة الجنود، فطلب والدي من أدهم خنجر أن يدخل ويختبئ بين النساء، لاعتقاده أنَّ الفرنسيين اتَّفقوا مع الإنكليز على اعتقاله، رفض أدهم طلبه، وخرج والدي وهو مرتدٍ قميص النوم.

خرج والدي وإذا بأدهم يقفز مسرعاً من نافذة المنزل مدجّجاً بالسِّلاح، ومصوِّباً مسدَّسه إلى رأس المختار، صائحاً بالجنود بعد تأكّده أنهم من اليهود ومتستّرين بلباس جنود الإنكليز (أتوا للانتقام من أدهم لأنه قتل جماعة منهم سابقاً)، وخاطب المختار: (إما أن تطلب منهم الرحيل وإما أن أطيّر نخاع رأسك)، فجمد المختار في مكانه وصار يخاطب الجنود باللغة العبرية.

نادى أدهم جماعته الذين تمترسوا على سطح المنزل، قائلاً لهم: «أردوا قتيلاً كلّ من يبقى من هؤلاء»، فانسحبوا خلف بعضهم، وصاح على رجلين من رجاله، وهما علي ندى من قرية الريحان، وأيوب أيوب علَّيق من يحمر الشَّقيف، فوثبا كالأسدين واعتليا جواديهما وبيد كل منهما بندقيته المصوّبة نحو الجماعة حتى أُبعِدوا عن المنزل [1].

13- نجاة غورو

علِم أدهم خنجر أن الجنرال غورو المفوَّض السَّامي الفرنسي في الشرق، سيزور مدينة القنيطرة السورية يوم 23 / 6 / 1921، فجمع رجاله وكمن للموكب عند مشارف بلدة القنيطرة، بقصد قتل السائق وأخذ الجنرال أسيراً.

فاجأ الثوار من في الموكب وأمطروهم بالرصاص، فأصيب الجنرال غورو بكمّ ذراعه المبتورة ونجا بأعجوبة، وقتل أمين سرّه القومندان برانيه، وأصيب مرافقه حقي بك العظم رئيس حكومة سورية بثلاث رصاصات.

1- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 252.

غادر أدهم خنجر بعدها إلى الأردن، فأسند إليه الأمير عبد الله وظيفة مفوّض بالشرطة ليبقى بجانبه، لكنه بعد فترة قصيرة ترك المهمّة وعاد والتحق بالثوار.

توجّه أدهم خنجر على رأس مجموعة من رجاله لنسف محطة توليد الكهرباء في دمشق، فانكشف أمرهم ولاحقتهم السلطة الفرنسية، فقرر اللجوء إلى دار المناضل سلطان باشا الأطرش[1].

14- إعدام ثائر

وشى أحد عملاء السلطات الفرنسية بوصول أدهم خنجر إلى منزل سلطان باشا الأطرش، فداهمته قوة مسلحة كبيرة، وألقي القبض عليه يوم 18 / 7/ 1922، ولم يستطيعوا الذهاب به من السويداء إلى دمشق، لا بالسيارات المصفَّحة ولا بالقطار، لأن رجال سلطان باشا الأطرش طوَّقوا قلعة السويداء وسدّوا جميع الطرقات والمعابر التي توصلهم إلى دمشق، فجرى نقله بطائرة خاصة إلى بيروت، وأجريت له محاكمة صورية سريعة، وأعدم رمياً بالرصاص فجر الأربعاء 30 / 5 / 1923[2].

1- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 255.

2- حركات النضال في جبل عامل، جهاد بنوت، دار الميزان، ص 228 و ص 255 - وتاريخ الجنوب اللبناني، محمد سعيد ياسين، دار الغد العربي، ص 146.

الفصل الثاني: ولّى زمن الهزائم

1- القلعة وبنو صهيون

لا يخفى على أحد ما ارتكبه العدو في ربع قرن من الزمن، وما خلّفه من آثار سيئة في جدران القلعة وأبراجها وطوابقها العلوية، قبل الاجتياح كانت عرضة للتدمير المنهجي وهدفاً دائماً للمدافع والطائرات وحقد الأسلحة الحديثة، والقلعة هي الموقع الأخير الذي انسحب منه الصهاينة فجر الرابع والعشرين من أيار العام ألفين، وأتبع انسحابه منها بغارات جنونية من طائراته الحربية الفتّاكة، فنالت حصّة الأسد من حقد اليهود الأزلي على الحجر والشجر والبشر.

صباح التحرير وبعد 7 سنوات من القصف المستمر وبعد 18 سنة من الاحتلال، اتّضح أنّها تعرّضت لأبشع أنواع التشويه، وتبيّن حجم الإجرام الذي ارتكبه أعداء الإنسانية بحقّ هذا الحصن المنيع، الموغل في الدّهر مجداً وفخاراً.

عادت الشّقيف إلى ربوع الوطن، غير أنها عادت منهكةً هذه المرّة، يعلوها الركام الذي ضيّع معظم ملامحها، واختلطت طوابقها السفلى بالعليا، وتهاوت شبكة أنفاقها، حتى بدت مقطّعة الأوصال مسلوبة المعالم.

عادت القلعة وتحرّرت من مخالب الاحتلال، فمتى يتحقّق حلمها وتتحرّر من قيود الحرمان والإهمال؟!

2- قلعة الشرف - سنوات عشر

عشرة أعوام مرّت على عرس التحرير، ولا تزال قلعة الشّقيف تعيش اللامبالاة القاتلة، ففي الذكرى السّنوية الأولى للتحرير وضعت دراسات جادّة لتأهيلها، وقيل وقتها إنّ التمويل آتٍ حتماً، وحتى اليوم لا تمويل ولا مَنْ يبحث عن مموّلين، وغابت القلعة في عالم النسيان.

عانت قلعة الشّقيف الأمرّين من جرّاء الاحتلال الصهيوني، وما خلّفه فيها من تدمير منهجي أتى على معظم معالمها الخارجية القديمة، وحفر إهمال الدولة ومؤسّساتها عميقاً في ندوب القلعة وزادها ندوباً.

تسع سنوات مضت على وعود الدولة التي انهالت بشكل استثنائي حينها، وقام وزير الثقافة آنذاك د. غسان سلامة بزيارتها، ووعد بوضع حرس يحميها من العبث، والعمل على مخطّطٍ توجيهي لترميمها وتأهيلها، لأنها تعتبر من أكثر المواقع الأثرية أهمية في جنوب لبنان.

وفى الوزير بوعدٍ من وعوده وأعلن سنة 2003 الانتهاء من الدراسات التي تشرح الطرق الممكنة لترميمها وتدعيم جدرانها، وتأهيل طرق الزوّار مع الشروحات التاريخية والمعمارية، كما تلحظ هذه الدراسة إيجاد مواقف للسيارات بعيدة قليلاً عن القلعة، واستحداث مبنى لاستقبال السياح، وتنظيم الدخول إليها عبر الموقع الأصلي للمدخل، وإبراز خندق القلعة، وإنشاء مسار للزوّار حوله، كما تشير الدراسة إلى إبقاء أجزاء من التحصينات التي بناها الصهاينة، لتكون شاهداً على تاريخ القلعة والوطن.

قدّرت كلفة مشروع الترميم بنحو مليوني دولار، ومدة تنفيذه بثلاث سنوات كحدٍّ أقصى اعتباراً من تاريخ التلزيم، وصرّح الوزير سلامة حينها، أنَّ التمويل قد يأتي من مشروع البنك الدولي، أو كهبات من أطراف أخرى.

بدأ العمل بمشروع البنك الدولي ولم تكن الشَّقيف من بين المواقع المدرجة، ثمَّ تغيَّرت الحكومة وضاعت الدراسة في أدراج المديرية العامة للآثار، ولم يلحظ أي مبلغ لترميم أو تدعيم أوّلي للقلعة، إنَّما بقيت تواجه مصيرها بصمت قاتل كصمت المسؤولين.

كانت قلعة الشَّقيف تعتبر من أجمل القلاع في المشرق العربي، أما الآن فتبدو للناظر إليها كأنها كومةٌ من الصَّخر رُميتْ في العراء، وتبدو الشقوق واضحة في جدرانها وأبراجها خصوصاً في الواجهة الشرقية.

مع العلم بأنَّ وصف مباني القلعة لا يتناول إلا الأقسام القائمة منها والسَّالمة من فتك الدهر والحروب، أمَّا الجزء المطمور تحت الأنقاض وخصوصاً في الجهة الجنوبية منها، فلا تزال صفحة التنقيب عنه غير مطروحة حتى في الدراسات، ولو قُدِّر للحفريات الأثرية أن تُجرى بعد عملية الترميم، لكان تاريخ هذا الحصن المنيع بدا أكثر إشراقاً ووضوحاً، ممّا يسمح بتأدية دورٍ إنمائيّ هامّ تحتاجه المنطقة بالتأكيد.

3- نائبٌ واحدٌ سأل

لتذكير سعادة النائب ياسين جابر بأسئلته السابقة والحاجة لمتابعتها، ولحثّ نواب الأمة وبالخصوص نواب الجنوب وبالأخص نواب النبطية، للقيام بواجباتهم تجاه هذا المعلم الأثري، نعيد طرح السؤال الذي وجّهه النائب ياسين جابر بتاريخ 3 تموز 2003 إلى الحكومة، مذكّراً بسؤاله السابق في العام 2001 عن المشاريع المقرَّرة لقلعة الشَّقيف، وممّا جاء في سؤاله:

(في بداية العام 2003 دُعينا إلى وزارة الثقافة، وأُبلغنا من قبل وزير الثقافة الدكتور غسَّان سلامة، أنَّ دراسة الترميم أصبحت جاهزة، وأنَّ كلّ ما يلزم هو التمويل، غير أننا فوجئنا بعدم

ذكر قلعة الشَّقيف من ضمن المناطق والأماكن الملحوظة في اتفاق البنك الدولي، فلا بدَّ لنا أن نتساءل عن صدق نوايا الحكومة ووزارة الثقافة ومديرية الآثار، وعلى الرغم من الوعود التي أعطيت لنا، والتذرّع بالتمويل لعدم البتّ بأعمال الترميم، نكتشف أنه عندما يتوافر التمويل لا تُلحظ قلعة الشَّقيف في الخطة الموضوعة، بما يعنيه ذلك من إمعان في حرمان المناطق المحرّرة، ودليل على الاستخفاف بعقول الناس، وبالوعود والتعهدات التي تعطى لنواب المناطق).

إلى متى الإمعان في تجاهل هذه القلعة الشمّاء وتاريخها الصّاخب، فالدَّم الموزَّع في جنوب هذا الوطن فاق كل توقّع، وأبناء عاملة دوماً هم الروَّاد في ساحات البذل والعطاء، فالصَّمتُ مريبٌ والسكوتُ خيانة.

ملاحظة: قبل أيّام من ولادة هذا البحث، أُعلن عن البدء بمشروع ترميم القلعة، ولأننا مصابون بداء الإحباط المزمن، ولأننا لُدغنا مرَّات ومرَّات في هذا الجنوب، كان قرارنا بعدم حذف ما كنَّا قد أوردناه في الفقرة السّابقة، كي يبقى سؤال النائب جابر موجّهاً لمن يعنيهم الأمر، خوفاً من عدم إنجاز ما أُعلن عنه.